

التأليف بين الإيلاف والإختلاف

محمد إبراهيم شقرة

كلما قرأت حديثاً من أحاديث الرسول ﷺ، ألفت نفسي أقف على مشارف عالية، أتقرئ منها البيان الموشى بالإعجاز، والمستقبل الراحل بالصدق، والإحكام الذي لا ينازعه نقض ولا اعتلال، والأحكام المبرمة بالقدر الحكيم المبدع.

وكلما أمنت النظر والتقرئ في أولئك، انسابت في صدري غدر الهداية شفيفة رقراقة، تنطرز وجوها بآيات الجمال الباهرة، وتصطفق فوقها تكسرات الرضا الحانية، وتزين سماءها ظلال وادعة ندية، أقرأ في سطورها كلها جلال الماضي، وصدق الحاضر، ورجاء المستقبل، حتى لكأنما أعيش فيها جميعاً في آن معاً، آخذ من كل منها جزءاً صغيراً، فلا تكاد تجتمع في يدي حتى تصير شيئاً واحداً رتقها بعضها إلى بعض تقديرٌ محكم، أجراه في نسق مطرد حبٌّ يؤثر للأمة، يسعى به فيها بذمتهم أدناها وأعلاها على حد سواء، حتى يوافي به خيراً لها في شدة ورخاء، صبغة الوحي الذي تلتقي عنده حقيقة الوجود برمتها، تامة غير منقوصة، أبصر فيها... بتأويل شيء من قوله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فتذهب عن نفسي أضرار الحياة، وتنشال عليها أشواق الآخرة، وأرى كل ما حولي خاشعاً في غير إكراه ولا حرج.

وما كان الرسول عليه الصلاة والسلام ليدع أمته تذرع أرض الحياة، وهي تعمل فيها

بأس اليأس - وتحطّب به جذوع الرجاء، وتلتقط به جذاذ الشقاق، بل إنه - بما أوحى إليه ربه من الكتاب والحكمة - بنى لها مأوى، تلوذ به في هجاء اليأس، فيكون منبتاً للرجاء: وتسرع إلى أبوابه المشرعة بالشقاق، فيكون منه الحب والإيلاف، وتمضى نحوه في أي حال، فإذا هي على أمثل ما تكون من الاستقامة، والهدى، والبصيرة.

قال عليه الصلاة والسلام: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حق عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، ويبين لهم شر ما يعلمه لهم».

وما كان عليه الصلاة والسلام؛ أن يكون مثل إخوانه الأنبياء في هذا الشأن، وكيف لا وهو الذي وصفه الله بقوله ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [الأحزاب: ٦].

والرسول ﷺ - الذي تلتقي عليه النبوات، وتنتهي عنده الرسالات، وعند عتبه تقف الهدايات - لا يرضى لأمة إلا أن تكون هي الأمة، التي تحقق في نفسها، ببصيرتها - واستقامتها، وحسن اتباعها قوله سبحانه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [ال عمران: ١١٠].

وكان عليه الصلاة والسلام يعقد لأمة في عروة واحدة لا تنقض الزمان كله، ماضياً عظة واعتباراً، وحاضراً طاعة وامثالاً - ومستقبلاً رغباً ورهباً.

فإذا الأمة كلها بمثل هذا على منزلة واحدة؛ تعرف فيها نفسها، وتسعى - وهي قائما فيها، شديدة الحرص عليها - أن تزداد تمكناً منها، وطمعاً في خير منها، ورجاء أن تصيب حظاً أوفر من حظها الذي أصابته؛ فتظل أبداً على وفرة من صدق التصور، وحسن العمل، أخذاً وتركاً.

وكان مما حدث أمة صلوات الله عليه، وأطلعهم بالوحي على غيب مطوي في تضاعيف المستقبل، أن العلم سيفشو، وأن العلم سيظهر، وأن الجهل سيربو. إخبارات تبدو لأول وهلة أنها ستكون متعاقبة، يخلف بعضها بعضاً بترأخ أو ياسراع، لكل واحد منها تأويل

يأتي من بعد الذي قبله، يصيب بعضها من بعض ما يزيد قوة أو ضعفاً، ظهوراً أو خفاءً، غير أنها في حالاتها كلها، تبقى علامات ظاهرة -إذا كانت- على أن الساعة قريب تحذر، وأنها آتية لا ريب فيها تتقى، وأنها إرهابات وشواهد صدق على نبوة المخبر بها ﷺ ترقب.

وليس هذا الذي يعيننا من سوق هذه الأمارات، بل هو ما نراه ماثلاً فينا اليوم، يسعى بكل ظواهره وخفائيه، وبجميع مبادئه ومعانيه، فليس شيء منه إلا كائناً على مثل ما أخبر عليه الصلاة والسلام، لم يتخلف منه إلا ما لم يكن قد أخبر به، لم يقبسه من نبوات غبرت، ولا من كتب قرأها واندثرت، ولا من كواهن ألقوا أحمالها وتخلت. فلو لم يكن عليه الصلاة والسلام نبياً برسالة التي ملأ نورها آفاق الحياة، لكانت نبوته مصدقة بكل واحد من تلكم الإخبارات، التي حفظتها لنا كتب السنة المطهرة، وخلدتها فينا سطورها المنورة، وأبقتها بين ظهرانينا يد الله الحافظة.

ولقد نظرت نظر المقارن الموازن بين ما كان عليه العلم قبل نصف قرن من الزمان، وبين ما صار إليه الآن، فعلمت أن العلم صار مطية ميسرة لكل من يريد أن يكون جاهلاً دعياً النسبة في علمه، مغموراً في معرفته، آفكاً بزور في ثقافته، فإذا ما وافيت واحداً منهم، متربعا على أريكته، حسبته مما هو فيه على إثارة من علم، ولا والله لا يبين إلا عن عي!! ولا يفصح إلا عن إبلاس!! ولا ينطق إلا عن فقر وإعواز!!

على أن في الأمة اليوم علماء، وافوا بعلمهم آفاق القرون الأولى، وصافحت عقولهم عقول العلماء الجهابذة فيها، ونظروا في أنفسهم فعلموا أن بينهم وبين أولئك نسباً شريفاً، افتضح بهم من افتضح من الأدعياء، واستبان بهم سوءات عقول المغموزين الجهلاء، وانكشفت بهم سرائر الآفكين الدخلاء.

وما كان العلم ليكون في زماننا ذريعة طيبة، ولا مركباً سهلاً، ولا مطية ميسرة، لو كان يبتغي به وجه الله والدار الآخرة، شأن الأولين السابقين. أما وقد صار إلى مثل ما

ذكرنا، فقد غاب سلطانه، وأعتم مكانه، وضل حتى الساعون به إليه، وحق علينا قول نبينا عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا

ويذكرني حال العلم والعلماء اليوم بحال الأمانة، التي أدبرت عنا، وأولتنا ظهرها، وشردت منا بعيداً، طلباً للنجاة بنفسها، حين أحيط بها، وصارت إلى خشية الضياع، حتى صار يقال فيها: إن في بني فلان أمينا، وحتى صار يقال للرجل: ما أعقله، وما أكيسه، وليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان.

وهذا ما يقال في العلم والعلماء اليوم، ويقال: فلان عالم، وما أعلمه، وما أوسع فقهه، وما أغزر معرفته، وما أكثر تواليفه، ولا والله، لا هو بالعالم، ولا العلم منه في شيء، وما بينه وبين العلم إلا ما صنع الحداد!!

ولو أنك ذهبت تحصي ما اشتملت عليه تواليفه، ما زاد على سطور سودها، وصحائف ملأها، ومداد أفرغه من قلمه. أما العلم، فليس بينه وبينه إلا عداوة، يعرفها هو بكيس جهله، صارت عنده إلى مودة عادية بها خلائق، ورفع بها عقيرته في الحقائق، وطاف بها متباهيا في الطرائق!

ومما عمق في ذلك، وزاد من بلائه، وأغرق في غلوائه، الغرور الفائق، المائق، الباهق، الذي من به على هؤلاء، من غير منة ولا أذى، ولا نظراً منهم جزاء أو شكوراً.

وكان مما أسرع في ذهاب بركة العلم، وغيوض أثره، أنه طلب لغير الله سبحانه، وحاقت به رغائب الدنيا، وأضحى في حواصل أهله للمراء والسمعة، وإرادته إلى غير غايته بنيات النفوس، فصالت الأهواء بين الناس وبين الفهم السليم لقوله عليه الصلاة والسلام:

«من تعلم علماً مما يتبغي به وجه الله عز وجل، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة».

واستمكنت تلك الأهواء فيهم، حتى صار مستحيلاً، أو يكاد أن يكون للعقل مكان يقتدر منه، أن يردي تلك النيات والرغائب، فاشتد عبثها بين ظهرائي أهل العلم، واستطالت فيهم بكل ما فيها من جشع وطلعة، وأثقلتهم بكل ما فيها إلى عقلها المريرة.

ولست بمنتجع خلاء من الأرض، أترسم فيه آثار خطو مندثرة، وأنا أستظهر للقارئ فقه تلك الأخبار النبوية العالية، التي تطلعنا على أمر لا شك أنه كائن عن فشو العلم، وشيوع الجهل، وظهور القلم، مبيناً له ما حوته من أحكام محكمة في ظاهر لفظها، ومستتر معناها، حيث لا تضاد في مبناها، ولا تنافر في معناها، فكلها يجري في نسق مطرد إلى غاية نصبها رافة النبوة، وأملتها شفقة الرسالة، وأوحت إلى معدن هذه وتلك رحمة الله من فوق سبع سموات.

وأول ما ينبغي أن نعلم من فقهها، أنه لا اختلاف قط في معانيها مؤتلفة، كما أن لكل منها معنى بافتراقها وتباينها؛ إذ ليس يعقل أن يكون في كلام النبوة -وهو والكتاب العظيم من مشكاة واحدة- تضاد واختلاف، إلا أن يكون ذلك في ظاهر اللفظ، ويجري التوفيق بين ما هو ظاهر منه، حسب القواعد الأصولية المرعية، التي تتأسس عليها الأحكام المستنبطة من أدلتها التفصيلية.

والثاني: أن هذه الإخبارات النبوية، منها ما دل على المدح في ظاهره، ومنها ما دل على الذم بصريحه، فقله «يفشو الجهل» لا يعقل إلا أن يفيد الذم، ولا شيء سواه، وقوله: «ظهور القلم، وانتشار العلم» المتبادر منهما المدح، ولكن المقابلة بين «فشو الجهل» وبين «فشو العلم، وظهور القلم» وكونها واقعة في زمان تظهر فيه أمارات الساعة، يلمح إلى أن دلالة الثاني والثالث منها على الذم، أبين من دلالتها على المدح، بل لا يكونان إلا

كذلك، وحسبنا في ذلك، أن اقتران الأشياء زماناً، كاقترانها لفظاً؛ فكلا الاقترانين يدل على ما يدل عليه الآخر، وقد كان الاقترانان معاً، والسابق منهما الاقتران اللفظي، وقد أدركنا الثاني، والله وحده المستعان، وعليه التكلان، والتفريق بين تلكما الدالتين تفريق لا يستقيم الحق معه.

والثالث: على أن أفراد كل من فشو العلم، أو ظهور القلم، أو استقلاله من غير ضمنية إلى شيوع الجهل، لا ينظر في تأويله إلى المتبادر، من اجتماع حروف كلماته، بل إنه لربما كانت دلالة الحفية على المعنى الضد البعيد أدل على المراد، وإلا، فما كان لأمر يذم مكان بين علامات الساعة الكبرى منها والصغرى على حد سواء.

والرابع: فشو العلم، له أشكال مختلفة وصور عدة، وأكثر ما يلحظ هذا في زماننا هذا، فوسائل الاتصال جميعها - المنظور منها، والمسموع، والمقروء - مسخرة لاتصال المعرفة وتواصلها، بكل فنونها، وأوزاعها، وأوزانها، ولست أعني بالمعرفة هنا، تلك التي ينتحلها زنادقة الفكر الرافعة، واحلاس الأدب المهترئة، وعيبات الشعر المخرقة، وجلالات القلم العائرة، إنما أعني المعرفة التي شرف أهلها بنسبتهم الحقبة إلى علوم الإسلام.

ولست أحسبني إلا أني على ظن - هو كمثل اليقين - أن ممن ينسب إلى علوم الإسلام ومعارفه، أسوء حالاً ممن وصفنا آنفاً، فإن فيهم من يهجم على العلم في غير شوكة ولا عدة.

ومنهم من يلجأ إلى الكتاب لجوءاً، لا يحمله عليه إلا ريثماً يتوارى عن عيون عارفيه، ومنهم من يلوذ به أو إليه لواء الشارد العائف، أضناه عيف شروده، فلا يكاد يصيب منه أيسره، حتى يحسب إنه من العلم على شيء!!

ومنهم من يتهجر إلى بداياته، ثم لا يلبث أن يسقط في وسط طريقه، فما أصاب إلا

الوصب، ولا أراده إلا إليه، فما عرف منه حتى اليسير.

ومنهم من يتعرف أسماء المؤلفين السابقين، يحفظها، ويحفظ أسماء الكتب التي ألفوا - لا يزيد على ذلك - فيحسب أن الأمر لا يعدو أن يضع اسمه على غلاف كتاب ينسبه إليه، بسطو ذكي على وجه دهم، قد يخفى على الناس زماناً - أو بسطو غبي - لا يلبث إلا قليلاً حتى يكشف ويفتضح، وقد استوقح حتى باد فيه الحياء، فلا يبالي ما يقول الناس فيه ذماً، فقد استوى عنده باستوقاحه ذمهم ومدحهم، إذ تصلب في عروقه دمه، وجف في أطرافه ماء الحياء، وتبلد في وجهه أسن القذى، وليس يحسن عنده، من بعد، إلا أن يكون غاصباً جاهراً في غصبه - لا يلذه إلا أن يقول فيه الناس: إنه سارق.

ولو كان سارقاً غير العلم بعلم لكان أهون على السرقة نفسها صنيعة، لكنه سارق يبقى وجه سرقة باديّاً في الناس، ناطقاً ما دامت سطورها مرقومة في الصحائف، وليس يعيبه إلا أن يغض الناس طرفهم عن سرقاته!! أي والله هكذا.

ومنهم فريق، تستوفزه همته القاعدة به عن الجد في الطلب، أن يأوى إلى كنف عالم شهر في الناس، وصار علماً جهبذاً بما آتاه الله من علم، يرفع بذلك خسيسته، ويدني به إلى الكبراء القلة منزلته، وتتقطع أنفاس لهائه، وهو يركض قدميه الهزيلتين لإحراز شيء من قليل قليل فاته، فلا يجد ذلك الذي فاته، إلا في خليس ما نبذ ذلك العلم الجهبذ، فيجمع هذا إلى ذاك منه، حتى إذا اجتمع لديه منه ما يصيره رسالة أو كتاباً، قمش اسمه عليه، بعد أن يكون قد استصدر فيه إذناً من الجهة المسؤولة، وهذه الجهة ضالعة بدورها في تسيير الجهل على جادة العلم، وتصيير الجهلاء علماء، يشار إليهم بالبنان، وينادى بهم على رؤوس الأشهاد أنهم من رؤوس العلم، لكنها رؤوس فارغة إلا من الجهل الموبق غيرها أيضاً في ظلمته عياداً بالله، فهل إلى مرد هؤلاء إلى أسباب العلم من سبيل؟!!

ومنهم من يحب أن العلم ينال بالتزبي بذلك الزي الذي أخرج للمسلمين فيهم صورة كهنوتية شائنة محيت بها آثار تلك الصورة العلمية الشاذة الأولى، التي راقّت الدنيا

زماناً وزهت بها الآفاق دهرأ، وعمرت في إطارها الأرجاء حيناً؛ وإن النظر السليم ليرتد عن تلك الصورة حسيراً كثيباً، وقد امتلأ بقوله عليه الصلاة والسلام: «من تشبه بقوم فهو منهم».

ومنهم فريق يحفظ بعضاً من غرائب المسائل، وشيئاً من شوارد أقوال أهل العلم، فيما يذم ويمدح منه، أو من أهله، ويزين حديثه في المجالس بأبيات من الشعر، والحكمة، والأمثال، ووقائع الأحداث، والأيام، والأرقام، والأعلام، يوهم سامعيه أنه على شيء من علم: يصنع بذلك صنيع القصاصين ذوي الذلاقة اللسانية، والفصاحة الكلامية، يرمقون المفتونين بهم أينما كانوا، ثم يأتونهم على تواعد أو على حين غرة، فيلقون على أسماعهم من فصيح الحديث، ومعسول الكلام، وطريف الأخبار، وتالد الأيام والأشعار، ما يهيج عواطفهم، ويربي من فتنهم بهم في صدورهم، ويزيد من التثائم بهم، فلا يرون خيراً منهم علماً، ولا أحفظ منهم جناناً، ولا أجرى منهم بياناً، شأنهم شأن العامة في كل زمان، تتبلى بهم الأمة، وهم السواد الأعظم فيها، ويصار إليهم بالرأي فيها، وهم الأحط نظراً منها، وتشام فيهم الحكمة، وهم برآء منها.

ومنهم فريق اتخذ العلم مطية للدنيا، فهو لا يرى إلا حيث يكون نفع دنيوي يرتجيه، أو غنيمة تراوده بفتنة في نفسه، أو مال يصيب منه، ولو قدراً زهيداً، إن استفتي استعصت على لسانه الفتوى، لا يخرجها إلا ما يحتلب ريقه، وإن استنصح استمسك النصيح على لهاته، لا يحركها إلا ما يزغها في أسفلها، وإن أريد على حق صراح كان أزهق الناس فيه، إلا أن يرى ما يغريه بالتحول عن باطل أقسم عليه أن لا يفارقه فبر بقسمه، فما أحوجه إذا إلى كفارة، أن وجد خيراً مما أقسم عليه، فلا أقل من أن يكفر عن يمينه هذه.

ومنهم فريق اتخذ العلم مهنة، قملأ الجيب، وترغد العيش، وتربى الثروة، فأقبل عليه من كل أطرافه، يبحث عن شوارده بذكاء، ويستقصي أباعده بخلسه، ويشدد وراء غرائبه بفطنة، حتى إذا اجتمع له من ذلك كله قدر، يسمى رسالة، أو كتاباً، أو مجلداً، اهتز منه

ذنب الفرح، فأخرجه للناس على نحو ما صار إليه رسالة أو كتاباً أو مجلداً، ويخفي في نفسه ما الله مبدية يوماً، يعري فيه عقله، وتنكشف فيه سوائه، ويبين عن صفحة جهل سوداء قائمة لا ينازعه فيها إلا من زاد عليه في جهله، وطغت عليه سخيته، وأوفرت له في عافيته، فهو يمضي به إلى أمل من سراب، وغاية من ضباب الخيال، وزهرة عشت عينه فرآها ناضرة وهي ذاوية في خبء الفناء.

ومنهم فريق يذكر يوماً أنه كان على وصل مع أهل العلم وطلابه، فانتبذ منهم، من بعد، مكاناً قصياً، ثم هو - وقد غابت عنه تلك الثمالة، التي نالها منهم - لا زال يحشو نفسه وهماً أنه على شيء من العلم، فهو يجري على صفحات المجلات والصحف عقله، يرتجي أن يعرفه الناس كاتباً أو أديباً، أو شاعراً، في إصرار يعاب به، وعجز يزان منه، وضلة تريبه حتى في نفسه.

صور تحاكت، وأشكال تماثلت، ونظائر تسامت، لكأنما تواضعت كلها على انتحال السوء المزهو في ثياب الدمقس الرافلة، تحور آملة في مواضعها، وتتخالف ظئينة في مظانها، وتتقلب حائرة في مضاجعها، تدور بأصحابها وأعتتها على غواربها، وتتاعنت بذويها، وعراها مدلاة واهية، وتتجاذب بأهلها ورماتها ماثلة لاحية، فلا عل ما أبقت من بعدها، ولا مالا خلفت لمن وراءها، ولا هدى آتت من خلفها.

والناظر المتأمل صنيع جل منتسبة العلم في هذا الزمان - فيما ألفوا وكتبوا وأوغلوا - يراهم لا متفرقاً جمعوا، ولا جديداً أحدثوا، ولا قديماً بعثوا، ولا عاثراً أنهضوا، ولا ساغباً أشبعوا، ولا معوجاً قوموا، ولا صواباً نهجوا، ولا بعيداً قربوا، ولا صعباً سهلوا، ولا مواتاً أحيوا، ثم بعد ذلك يحسبون أنهم من العلم على شيء، أو أنهم، إن غابوا عن المجالس افتقدوا، وإن حضروا عظموا، وإن تحدثوا أبلس غيرهم، وإن نطقوا جرت الحكمة على ألسنتهم، وإن غابوا صدقوا، وإن مدحوا وهبوا، وإن صمتوا أسكتوا، حقهم على الناس أعظم من حقهم هم على أنفسهم، يأخذون ولا يعطون، يفعلون ولا يسألون، ويردون

ولا يصدرون، ويقولون ولا ينظرون، وهم السابقون الأولون!!

فما هؤلاء القوم لا يكادون يعلمون الحق، ولا يستبينون طريقه، ولا يميزون صواباً من خطأ، ولا أسود من أبيض، ولا ليلاً من نهاراً!

مما فات كله نتبين أن الإخبارات النبوية ليست إخبارات مجردة يراد بها إعلام الناس أمراً أو أموراً غائبة عنهم، بما سيكون فيهم من مستقبل الأيام أو تصديق ما وقع فيها، مما لم يكن قد وقع من قبل أن يشاهدوه، بل يراد بها أيضاً التعريف بآثارها السيئة، والتحذير مما يدركهم من وحرها ووشرها.

ومن شر هذه الآثار وأسوأها:

- ١ - انتفاش الغرور، والظنون الواترة، والرَّيب السخيمة.
- ٢ - الانتحال الكاذب المفضي إلى استباحة الكذب في العلم، وصيرورته فضيلة من الفضائل، وحسنة تبهج النفس. عياداً بالله!
- ٣ - حب الظهور والجري وراء الشهرة، والحرص الشديد على أسبابها.
- ٤ - شيوع الاتهامات والإغراق فيها، حتى تصبح سجية مرضية في العلم وأهله.
- ٥ - فشو العداوة بين طلاب العلم واستصغار شأن الجدية فيه.
- ٦ - إساعة السطو على حقوق العلماء، واستحلاب جهودهم حراماً بأيسر الحيل، واستحلال نسبتها إليهم بزور من القول والباطل.
- ٧ - عجز القراء عن متابعة ما تصدره دور النشر والمطابع، والتحير بين الآراء والأفكار التي تقنصها الكتب والرسائل المؤلفة، وأخيراً الرضوخ للملل، والإعراض عنها.
- ٨ - غياب الإبداع العلمي، والركون إلى النقولات المتسرة الهزيلة.

٩- استبداد الخلاف، وانشغال طلاب العلم بأسبابه ودواعيه ونتائجه.

١٠- صرف طلاب العلم عن التراث العلمي الوافر الذي ينشئ فيهم الملكة العلمية.

١١- تبديد الجهود، وصرفها في الترقب والتربص والكيد.

وبعد، أليست كل هذه الآثار السيئة -وغيرها كثير يشبهها- تقفنا على معنى تلك السنن النبوية الحكيمة، والآثار المحمدية المحكمة، فنكون على بينة حاذرة، مما ألم بالعلم وأهله في زماننا الحاضر؟ ونعوذ بالله مما يكون منه في المستقبل الآتي.

